قراءة المعجمات !

لا أدري لماذا لا نقرأ كلّ يوم صفحة من صفحات المعجم على الأقل ، ولست أريد هذه القراءة لمجرّد التبحّر في اللغة أو الاطلاع على مفرداتها أو الانتفاع بألفاظها ، وإنما أريدها لأمور أبعد ، وإذا كان أحد أئمة الأدب في الغرب قد رأى في معجم اللغة روح الوطن ولحمه ودمه ، وكتب في هذا المعنى صفحة تكاد تكون أبلغ ما كتب في مقادير المعجمات ، فإني أرى في المعجم مرآة الأمة تعكس علينا مختلف أخلاقها وأمزجتها وطبائعها وصفاتها ، وترينا كل ما يتصل بحركاتها وسكناتها وانتقالها من طور إلى طور على تراخي السنين ، وتعرض علينا مظاهر حضارتها من كل الوجوه ؛ فقد يذهب عصر ويأتي عصر ، فيأخذ الآخر عن الأول ما تركه له من العبارات والأفكار والصور ، ثم ينقل هذا كله إلى العصر الذي يأتي بعده ، ولذلك نستطيع أن نقرأ كل تاريخنا في معجم من معجماتنا ، لأن هذا التاريخ قد أبقى في بطون المعجم ما خلّفه لنا من علم وأدب وفن فلسفة وسياسة واجتماع ، ومن قصور وآثار في العمران مختلفة ، حتى اننا نستطيع أن نقول إن علم اللغة انما هو أكبر معوان للتاريخ .

إلاّ أن هذه المرآة قد ترينا فضلاً عن كل ما ذكرت قوانين الحياة مثل قانون تنازع البقاء أو الانتخاب الطبيعي أو التطور وما شابه ذلك ، فنشهد هذه القوانين على أكمل وجه ، ولو ذهبتُ إلى إحصاء ما يخطر على البال من الخواطر في أثناء قراءة المعجم من حين إلى آخر لفاتني شيء كثير من هذه الخواطر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لكثرتها وازدحامها ؛ واذا فتشتُ عن كلمة جامعة أصف بها اللغة فهل أستطيع أن أقول إنها مرآة الأمة في كل أفق من آفاقها ، ولو كنت عالماً من علماء الأخلاق أو الاجتماع أو النفس لاعتمدت على اللغة في الاهتداء إلى كثير من أسرار هذه العلوم . من هذا كله يتبين لنا أن قراءة صفحة من صفحات المعجم تزيد في بياننا من جهة ، وتطلعنا من جهة ثانية على ما خفي من بواطن الأمة التي ننتسب إليها ، حتى نكاد نرى بأعيننا كيف تدرجت هذه الأمة من صحاري جزيرتها إلى قصور حضارتها في الشام والعراق ومصر والأندلس وسائر أقطارها .

لا بأس بعد هذا كله بضرب أمثال من الخواطر التي تمرّ بالبال وأنا أطالع صفحة من معجم اللغة من حين إلى آخر .

نجد في مادة الناطر ما يلي :

« وابن الناطور صاحب إبليا وصاحب هِرَقْل كان منجّماً ، سُقّف على نصارى الشام » .

ونجد في مادة سُقّف تسقيفاً : صيّر أسقفاً ، والأسقف رئيس للنصارى في الدين فوق القسيس ودون المطران ، وجمعه أساقفة وأساقف ...

على أي شيء تدلنا هذه الصيغة ؟ إنها تدلنا على أن اللغة لا تجمد على شكل من الأشكال ، فلبس بها يبوسة وجفاف ؛ مرّت بها مادة الأسقف وهي غريبة عنها ، فأدخلتها في مفرداتها ، ولينتها حتى هضمتها ، واشتقت منها فعلاً على جمود هذه المادة ، كما مرّت بها في هذا العصر مادة الأمة فاشتقت منها مادة التأميم ، وأريد بهذه الصيغة جعل الشيء تساهم فيه الأمة ، ويكون لها منه نصيب .

اني لم أهتمّ بهذه الخصائص فلست من علماء اللغة ، وإنما استنتجت من هذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الاشتقاقات كلها لين اللغة وطراوتها ، كما اصنتجت منها لين الأمة وطراوتها ؛ فاللغة القابلة للتليين إنما هي مرآة الأمة القابلة لمثل هذا التليين ؛ فكما أن لغة العرب طيعة تطاوع العصر في مظاهره ، فكذلك العرب كانوا طيّعين يطاوعون عصورهم في مظاهرها ، على نحو ما طاوعوها في انتقالهم من مضارب البدو إلى قصور الحضارة ، وفي هجرهم في هذه القصور لألفاظ ألفوها في مضاربهم ، ولجأوا إلى ألفاظٍ اقتضتها حضارتهم التي دخلوا فيها .

لقد نشأت لغتنا في البادية فكان لها خشونة هذه البادية في أوّل نشأتها ، ثم انتقلت إلى الحضر فكانت لها نعومة هذا الحضر .

فلنأخذ طائفة ثانية من الأمثال ؛ إنّا نجد في باب الأخلاق هذه المادّة : المَقَلَّسُ ، ومعناها السّيء الخلق والمِلَقَّسُ الرديء الأخلاق والمِعْرِسُ اللئيمُ والمَيْجَبُوس الأهوج الجافي ...

هذه ألفاظ لم أفتش عنها تفتيشاً وإنما مررت بها عرضاً وأنا أطالع المعجم على عادتي ، فكنت أقف عند هذه الموادّ فأتأمل ، وقد يطول تأملي ، إنها توحي اليّ أشياء كثيرة ، توحي اليّ قبل كل شيء خشونة البيئة التي نشأت فيها وترعرعت ، ثم ماتت هذه الألفاظ بمجرّد هجرتها من بيئة خَشِنة إلى بيئة ناعمة ، كما أنها توحي اليّ قانون الحضارة التي لا تقبل في مفرداتها الاّ الألفاظ السهلة الرقيقة اللينة ، فكيف تحتمل الحضارة موادّ من هذا القبيل : المَقَلَّسُ .. المِلَقَّسُ .. المَيْجَبُوس وأضرابها ، ان الحضارة لا تحتمل أشباه هذه المفردات اليابسة ، الجافة ، لذلك طرحتها وخلقت لها مفردات تناسب رقة الحضارة ونعومتها مثل : سيء الخلق ... رديء الخلق ... أهوج .. التي شاعت على ألسن العامة فضلاً عن الخاصّة .

فهذا دليل آخر على أن أهل هذه اللغة وهم العرب بانتقالهم من البدو إلى الحضر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رغبوا عن كل مظاهر البدو ومالوا إلى مظاهر الحضر ، معنى ذلك أنهم خلقوا للتطور ، فلم يجمدوا على شكل من الأشكال .

ومثل هذه المشاهد نشهدها في كثير من مفردات اللغة ، في كل باب من الأبواب ، في الحركات والصفات وغير ذلك ؛ ولا أقلَّ من ذكر مواد يسيرة في هذا المعنى .

يقولون : الحزْباقُ المرأة السريعة المشي ... والخَفَلَّقُ كَمَمَسّ وكَجَحْفر : الضعيف الأحمق ... والدُّعشُوقة الصَّبيّة ... والدُّعلوق الغلام الخفيف الروح ، الحارّ الرأس ...

فأيّ ذَوق في عصرٍ من عصور الحضارة يلجأ إلى هذه المواد الثقيلة ويتخلّى عن موادّ ثانية مثل : المرأة السريعة المشي ، والضعيف الأحمق ، والصبيّة ، والخفيف الروح وغيرها وغيرها ... ونحمد الله على أن العرب لم يعوزهم في ماضيهم ذوق سليم .

وإذا انتقلت من هذا الباب إلى باب آخر ، إذا انتقلت من قانون الانتخاب الطبيعي في اللغة إلى قانون تنازع البقاء ظفرت بمظاهر غير قليلة من هذا القانون وأرجو أن يُسمح لي بنقل صفحة في هذا المعنى من كتابي : أنا والنثر :

« كنت شديد الاهتمام بالمصادر وتطور معانيها ، فكنت أراقب بعض هذه المصادر ، فأرى ثبات بعضها على أصل معناه وأرى انتقال بعضها من معنى إلى معنى ، كما أرى موت بعضها ، من ذلك مادة : سأل ، فإنا نجد في محيط الفيروزابادي : سأله كذا وعن كذا وبكذا بمعنى ، سؤالاً وسآلة ومسألة وتَسْآلاً وسألة ، فنحن الآن بحضرة من خمسة مصادر غلب منها ثلاثة : السؤال والمسألة والتسآل ، وكاد يختفي في معجمات اللغة المصدران الآخران : السآلةُ والسَّألة . وإذا وجدنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من يستعملها في هذا العصر فانا نجد أن استعمالها يكاد يكون غير مألوف ؛ أمّا المصادر الثلاثة الباقية فقد انشقّ عنها مصدر واحد واستقل بحياته وأصبح له معنى خاص غير معنى أخويه ، وأعني بهذا المصدر المستقلّ : المسألة ، فقد ظفرت هذه المادة بمعنى لا نراه للسوآل ولا للتسآل ، فاذا قلنا في تاريخنا السياسي الحديث : المسألة الشرقية فاننا نعني بذلك قضية خاصة من قضايا هـذا التاريخ وهي قضية معروفة ؛ ولا نستطيع أن نستعمل في هذا المقام السوآل فنقول : السوآل الشرقي ، فان مثل هذا الاستعمال لا يكاد يفهمه أحد . وقد بقي المصدران الآخران : السوآل والتسآل ، امّا التسآل فأكثر ما يرد استعماله في الشعر لاستقامة وزن من الأوزان ، فان استعمال هذا المصدر في النثر قليل جداً ، وامّا السوآل فهو المصدر الوحيد الذي حافظ على معناه الأول ، وغلب على كل المصادر في هذا المعنى » .

لا أريد التبسط في أشباه هذه الاستشهادات ، والذي أرمي إليه انما هو بيان ما توحيه إلى الإنسان مطالعة المعجمات مما يتصل بتاريخ الأمة في كل مظهر من مظاهر أذواقها وعقولها وشعورها وحسّها ونظائر هذه الأمور .

والذي أتمناه بعد هذا كله إنما هو الوصول إلى معرفة كيف نشأت هذه اللغة حتى بلغت ما بلغته من الكمال ؛ فقد يرى بعضهم أن بين الأرض وبين لغة البشر صلة محكمة الأواصر ، وهم يريدون بذلك أن اللغة نشأت من شقوق الأرض ، أي من الفلاحة والحراثة ، وإذا كانت المدن قد أضافت شيئاً إلى لطف اللغة فان هذه اللغة قد استمدت قوتها من البادية حيث نشأت وترعرعت . أنقل هذا الكلام كما مررت عليه في بعض كتب الأدب الفرنسي ، ولا رأي لي فيه ، فلست أجزم أو أقطع ، فهـل نشأت لغتنا من الفلاحة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والحراثة ؟ لا ريب في أنها جاءتنا من جاهليتنا ؛ ولسنا نعلم شيئاً عنها قبل هذه الجاهلية ، وإذا كان علماء اللغة قد انتهوا إلى معرفة شيء من أصولها ونشأتها فهل تكون هذه المعرفة من باب الحدس والتخمين ؟ وفي كل حال اني لا أكتُمُ أسفي على جهلي أوليّة لغتنا المباركة ، كيف ولدت وكيف نشأت وترعرعت حتى وصلت إلى ما انتهت إلينا من أيام امرئ القيس ومَن قبله من الشعراء ، ولقد أمرّ بكتاب فرنسي يبحث صاحبه عن مفردات الفرنسية ، كيف ولدت وكيف عاشت أو ماتت ، فيردّ كثيراً من هذه المفردات إلى بعض أصولها اللاتينية ، فآسف الأسف كله على أني لا أجد مثل هذا الكتاب في لغتنا ينقع الغليل فيردّ هذه اللغة إلى أصولها ، ويوضح لنا كيف ولدت لغتنا وكيف عاشت مفرداتها أو ماتت على تعاقب العصور .

مصطفى صبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net